اللغة العربية والهوية الثقافية (الحالة السودانية أنموذجاً)

د. أبوبكر حسن أحمد مسعود ــ جامعة القضارف ــ السودان

مقــدمــة :

موضوع اللغة والهوية الثقافية أصبح في وقتنا الحاضر يحتاج منا وفي إلحاح إلى طرح جديد ، وتدقيق البحث فيه بعمق ورؤى جديدة تستلهم كل المستجدات.وهو موضوع في قديمه متباين المرجعيات والمفاهيم والمكونات وفي آنه تكثر إشكالاته ؛خاصة أن أغلب الدول العربية الآن يدور فيها جدل عنيف وهي تمر بمراحل تكوين جديدة ، بعضها هبت عليه نسمات باردة من الربيع العربي، والبعض الآخر مازالت نسماته ساخنة حرى . وبلدنا السودان غير ذلك، حيث كان خريفه عنيف الهطول ؛ مما أحدث فيه انزلاق أرضي انزلق به إلى انفصال جغرافي وديموغرافي ، وسياسي، بل له تبعات لغوية وثقافية ،ولاشك سوف يعيد تكوينات الهوية .

والجدل الدائر الآن في معظم هذه الدول يتركز حول إنشاء الدساتير الجديدة التي لابد من التنصيص فيها صراحة على أمور اللغة والدين ، وبيان ملامح الهوية ومكونات الثقافة .

واخترنا النموذج السوداني لأنه الأعقد في تلك القضية؛ فاللغة العربية فيه هي الرابط الوحيد الذي جمع أهل السودان. لكن التقسيم الجديد للسودان يريد أن يتخلى عنها؛ لأنه يرى أنها سبب قوة أهل شمال السودان. والهوية بمكوناتها المتعددة والمتباينة يراد لها أن تتمايز وتنفصل مثلما انفصل جنوب السودان. وكذلك الثقافة المتراكمة يراد أن يجتث أصلها الأفريقي العربي الثابت في الشمال ، ويقطع فرعها العربي الإسلامي الممتد في سماء الجنوب والذي يؤتي أكله كلما طلبوه .

والسودان بوابة العرب الجنوبية على أفريقيا ، ومعبر الإسلام إلى أدغالها وعمقها . وأصبح شعبه المثخن بالجراح ،والمثقل بهمومه ومشكلاته ، وتحدياته يصارع وحيداً ، ويرابط في تلك الثغور القاسية ، ويحتاج إلى دعم الأمة العربية التي وإن غفلت عنة مرة نريدها أن تنتبه له مرات ومرات .

وأن تدعم الوجود العربي والحضور الإسلامي في هذا القطر الذي اختار أن ينضم لجامعة الدول العربية وكانت عنده الخيارات كلها متاحة .

والوجود العربي يبرز أكثر ما يبرز في أمر اللغة ؛ فإن الاعتناء والاعتزاز بالعربية لــغة يوفــر الروابــط المشتركة روحياً وثقافياً ،واجتماعياً ، مما يؤهلنا للقدرة على مواجهة التحديات التي تهدد وجودنا الحضاري . والبلاد العربية لاتستطيع أن تعرف ومن ثم تحمي هوياتها الثقافية الذاتية إلا في إطار تعاونها المشترك .واللغة العربية هي السلسلة الذهبية التي تربط كل العرب .

اللغة والهوية (المفهوم والعلاقة)

مفهوم اللغة :

من فضل الله ورحمته أن جعل للناس لساناً يتفاهمون به ، فإن الناس يحتاج بعضهم لبعض ، ومن هنا احتاجوا إلى التفاهم فيما بينهم ، والتعارف ؛ فجعل الله لهم وسائل للتعارف ، ومن أعظمها الأنساب ،حيث قال تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم.) ([1])

وجعل لهم وسائل للتفاهم وأعظمها اللغات ؛ ولهذا ربط الله تعالى بين الألوان واللغات ، وبين خلق السموات والأرض في قوله تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين.) ([2]) .

فالبشر لا يمكن أن يتفاهموا إلا عن طريق وسائل الحس _ الحواس الخمس _ وهذه الحواس جعل الله تعالى الحيوانات تتفاهم عن طريقها. والتفاهم بين بني البشر لا يتم إلا عن طريق السمع والبصر ، والسمع أقوى.

وتعد اللغة نوعاً من أنواع التعبير الكلامي الذي يؤديه الإنسان ، ساعياً بواسطته إلى الفهم والإفهام ، وإلى التوصيل والأداء . وتتخذ اللغة الإنسانية حيزاً مهماً في منظومة التواصل المتعدد العناصر التي تربط المجتمعات البشرية في عصرنا الحالي . واللغة بأشكالها الإشارية، والمنطوقة، والمكتوبة تمثل الوسيلة الأقدم للتواصل البشري .

(لقد أثبتت الدراسات التي أجريت على الطرق التي تستخدمها الكائنات الحية الأخرى التي تعيش على هذه الأرض من حيوان وطير وحشرات أن اللغة تحتفظ على تتابع العصور وتنوع الحضارات بقيمتها ومكانتها ؛ فهي المظهر المادي للوجود الحقيقي للإنسان ؛ فحين يفنى الأفراد ، وتندثر الجماعات ،لا يبقى منها ذو قيمة إلا ما حفظته اللغة ، وهي _ أي اللغة _ القوة الخفية التي تحرك الأفراد و توجه المجتمعات .... ، وبكلمة يسعد الإنسان أو يشقى ، ويؤمن أو يكفر ويلقى الثواب أو العقاب ، وبالكلمات تقوم الأحكام ويموج العالم أو يطمئن .) (٣)

١- سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

[2] - سورة الروم ،الآية (٢٢)

٣ – محمد عبد الرؤوف المناوي – التوقيف على مهمات التعاريف _ تحقيق محمود رضوان الداية _ دمشق _ دار الفكر ١٩٩٠م_ صـــ ٦٢٢ .

واللغة في المفهوم العام قدرة على التعبير ، وهبة من المولى عز وجل ، واللغة أهم سمات الوجود الإنساني، وبهارقى نوعه ، وتميز عن الأجناس الأخرى، وتمتاز لغة الإنسان بالتطور ؛ وهي تستجيب لمتطلباته المكانية ،والزمانية ، والإنسانية .

اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها ، وليس هناك اتفاق شامل لمفهوم محدد للغة ؛ ويرجع سبب كثرة التعريفات إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم .

ولكننا مع هذه الكثرة نحاول أن ننتقي من التعريفات والمفاهيم ما يخدم غرض البحث .

(اللغة نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية ، يتم بواسطتها التعارف بين أفراد المجتمع ، تخضع هذه الأصوات للوصف من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها جهاز النطق ، ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظواهر النطقية .) (١) وتعرف بأنها: (ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس .) (٢) ويعرفها ابن جني بقوله : (أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .) (٣)

ونقف مع تعريف ابن جني ، والذي يميز لنا ماهية اللغة في ذكره الأصوات والقوم والأغراض ؛ فتقوم العلاقات مابين اللغةكوسيلة للتعبيرعن الشعور والتفكير معاً وبين مكانة اللغة ودورها الذي تؤديه في المجتمع ؛ فاللغة وسيلة جمعية .(فاللغة هي أقرب الأشياء إلى الإنسان، ومن ثم إلى الجماعة التي تتحكم فيها إنها- إن شئنا - أشبه ما تكون بالروح ، أو هي الروح ، وما الفرق بين هذه وتلك سوى أن ما نطلق عليه - روح — تكون به حياة الفرد ، وما نطلق عليه — لغة - تكون به حياة الجماعة ، والروح تبعث الحياة في جسد واحد ، واللغة روح جماعية تملك طاقة كبيرة تبعث الحياة في أجساد كثيرة .) (٤) .

وتفنن المنظرون في مختلف التخصصات في محاولة تعريف اللغة ، وتحديد مفهومها ، وبين أصل اللغة ومشتقاتها ومتفرعاتها ، وبين الشعور والتفكير والتعبير ، وبيان خصائصها ووظائفها ودورها وأهميتها وتطورها ، وغير ذلك من قضايا اللغة المختلفة . يقول ديسوسير عنها أنها : (نسق معرفي من العلاقات الرابطة بين الألفاظ والمعاني ، وبين أصل اللغة ومشتقاتها ، وبين الكلام ونية المتكلم ، واللغة نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار .) (٥)

---

١ - د. خليل أحمد عمايره ــ في التحليل اللغوي ــ مكتبة المنار ــ ط١ ــ ١٩٨٧م ــ صــ٢١

٢ ــ د . جمعة سيد يوسف ــ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ــ سلسلة عالم المعرفة ــ رقم ١٤٥ــ يناير ١٩٩٠م ص٥١

٣ــ أبو الفتح عثمان بن جني ــ الخصائص ــ عالم الكتب ــ تحقيق محمد علي النجار ــ ج١ صــ٣٣

٤ ــ د فيصل الحفيان ــ اللغة والهوية ــ اشكالية المفاهيم وجدل العلاقة ــ مقالات شبكة الألوكة الإلكترونية .

٥ ــ فرديناند ديسوسير— دروس في الألسنية العامة — ترجمة صالح القومالي وآخرون - الدار العربية للكتاب- بيروت ١٩٨٥م صــ ٢٩

ويقول نبيل علي : (لقد أصبح شاغل الفكر اللغوي بعد(ديسوسير) هو الكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة ، وتفسير الآليات الدفينة لمنظومة اللغة .) ([1])

واللغة هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب ، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق. وقد عرف الإنسان العالم أو حاول أن يعرفه لأول مرة يوم أن عرف اللغة .

وفرح الإنسان فرحته الأولى الغامرة يوم استكشف اللغة ، ويوم تهيأ له استكشاف الوجود عن طريق هذه الكلمة (٢)

وقد تبلورت فكرة التواصل في اللغة من منطلق أن الإنسان يخضع لعادات وتقاليد سلوكية وكلامية تلزمه بأن يكون ضميمة ضمن منظومة الجماعة التي ينتمي إليها ويتناغى معها في انسجام شعوري وفكري ، وتعبير لغوي . ومن هنا كانت الأبحاث اللغوية تبحث عن التوازن بين مواضعات اللغة والواقع اللغوي ، متجهة نحو غاية أن اللغة وسيلة التعبير المثلى عما يحس به ويدور في الأذهان . (ولا غرابة أن نتكلم عن الدال لأنه سيكون إطارا بسيطاً لفهم كيفية ظهور الهوية إلى حيز الوجود ؛ لأن العلاقة اللغوية عند (ديسوسير) تتألف من تزامن الدال بمدلوله ، على اعتبار أن الهوية القومية تبدأ بكونها دالاً لمدلول يوجد كرغبة فقط في بداية الأمر ، وبدافع كاف ينتقل إلى دافع يعبر عن مدلول سوف يعبر عما يوصف به بعد ذلك .) (٣)

إن لكل عصر همومه ومشاكله وقضاياه ، والإنسان مطالب في كل عصر بأن يواجه الحياة بما يلائمها من سلوك ، ومن خلال هذه المواجهة تترسب قيم العصر وتتبلور مثله . واللغة بوصفها ترجمانا لكل فعل ، أو المقابل اللفظي لكل موقف إنما تتكيف بحكم مافي طبيعتها من طواعية ومرونة، وفقا لكل فعل وكل موقف ، فإذا هي تتحمل الجديد من الشحنات التعبيرية كلما تجددت الأفعال والمواقف ، ومن ثم تظل اللغة دائماً أوضح وأقوى وأدل ظاهرة تتجمع فيها كل سمات الوجه الحضاري الذي تعيشه الأمة . وليس مبالغة أن يقال : (إذا أردت التعرف على الإطار الحضاري لشعب من الشعوب في زمن من الأزمان فادرس لغته؛ ففي عروق اللغة – إذا صح هذا المجاز – يعيش نبض العصر.)(٤).

---

[1] – نبيل علي ـــ الثقافة العربية وعصر المعلومات ـــ عالم المعرفة ـــ الكويت ـــ عدد ٢٦٥ يناير ٢٠٠١م ـــ ص١٧٤ .

[2] ـــ د . عزالدين إسماعيل – الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – دار العودة – بيروت – الطبعة الخامسة ١٩٨٨م – صـــ ١٧٣ -١٧٤ .

[3] – جون جوزيف – اللغة والهوية ، قومية إثنية دينية – ترجمة عبدالنور خرافي – عالم الفكر – الكويت عدد ٣٤٢ – أغسطس ٢٠٠٧م – ص٢٢

[4] – د عزالدين إسماعيل – مرجع سابق صـــ١٧٥

مفهوم الهوية وماهيتها :

الهُوِيّة – بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء المفتوحة – تعد من المصطلحات المتداولة كثيراً على الساحة السياسية والثقافية والاجتماعية . وفي المعجم الوسيط ، أن الهوية حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره ، وهي أيضاً بطاقة يثبت فيها اسم الشخص ، وجنسيته ، ومولده وعمله ، وتسمى البطاقة هوية أيضاً .(١)

هي كلمة قادمة من عالم التصوف والفلسفة ، وقد ولدها العرب والمسلمون قديماً من النسبة إلى (هو) أو (الهو) لتؤدي معنى فعل الكينونة في اللغات الهندوأروبية .

إن دلالة الكلمة ليست سوى وجه آخر لما يعبر عنه ب(الحقيقة) أو الذات أو الماهية ؛ ولذلك فإنهم كثيراً مايعرفون أحد هذه الألفاظ بالآخر. (٢)

الهو إذن هي الحقيقة المطلقة ، غيب الإلهية .حتى (الهوية) نفسها قالوا : إن الأحق بهذا اللفظ من كان وجود ذاته من نفسها ، وهو المسمى بواجب الوجود المستلزم للقدم والبقاء . ثم حدث تطور دلالي فأصبحت الهوية (هي الحقيقة أو الماهية أو الذات للشيء ،أي شيء . وقد عبروا عنها بأنها مابه الشيء أو هو هو.) (٣)

ولو تتبعنا ما قيل فسنجد أن الهوية عند أهل الفلسفة هي حقيقة الشيء أو ماهيته ، أو ذاته في حال تشخصها ، أو تحددها ، أو تميزها عن غيرها . ويعرف المتصوفة الهوية بأنها: (الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق .)(٤)

أما عند علماء النفس فهي:(وحدة ذات الشخص في مراحله المختلفة طفلاً وشاباً ،وكهلاً ، وشيخاً.) (٥)

وعلماء الاجتماع يرون في الهوية: (ذلك الشيء الذي يشعر الشخص بالاندماج في المجتمع الذي يعيش فيه ، والإنتماء إليه .) (٦) أما علماء الميتافيزيقا (الغيبيات) فالهوية عندهم :(جوهر العقل وماهيته) أو أنها والعقل شيء واحد ،في ماهيته وصورته وقانونه .

ويقترب علماء المنطق من الأفهام أكثر عندما ينظرون إلى الهوية على أنها (علاقة بين شيئين تجعل منهما متساويين ، فهي ما يجعل شيئاً ما متشابها تماماً مع شيء آخر .) (٧)

---

[١]– المعجم الوسيط – ج ٢، – صـــ٩٩

٢ – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – الموسوعة الإسلامية العامة – القاهرة – المجلس صـــ١٢٢٢

٣ –المناوي – التوقيف صـــ٧٤٤

٤– عبد الرحمن بدوي – موسوعة الفلسفة (الهوية)

٥– المصدر نفسه

٦– الشريف الجرجاني – التعريفات – بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٨٨م صـــ ٢٥٧

٧ – الجرجاني – مرجع سابق صـــ٢٥٧

والسؤال عن الهوية محير ، يثير إشكالا معقداً ؛ (لأن الملامح العامة للهوية هي التي تحدد وجودنا ، وتحقق فاعليتنا ، وهي لا تمثل مجرد إنتماء إرادي بقدر ما تمثل منهجية حياتية عميقة ، وهي تشبه الشفرة التي يتعرف بها الآخرون علينا ، وهي شفرة تجمع عناصرها المعرفية من التاريخ والثقافة ، والطابع الحياتي ، والواقع الاجتماعي . وتبرز في تعبيرات خارجية ،كالرموز،والإشارات، والآثار ،والمنقولات والعادات والتقاليد باعتبارها عناصر معلنة تجاه الآخرين .) ([1])

مما سبق من إشارات سريعة إلى مفهوم الهوية من وجهات نظر مختلفة ، وعبر رؤى متباينة يدل على أن الهوية مفهوم مطلق يعني الحقيقة والماهية والذات، والوحدة والاندماج ، والإنتماء والتساوي والتشابه ،وكلها دلالات تصب فيما نحن بصدده من قضية اللغة في علاقتها بأصحابها .

فالهوية إذن في مفهومها العام هي الصفة التي يتمايز بها الأفراد أو الجماعات عن بعضهم البعض ، وتتحدد بها حالتهم ؛ على الصعيد الفردي تعني (التمايز) أما على الصعيد الجماعي فتعني (التمايز والتماثل في آن واحد) ، أي تماثل أفراد جماعة مع بعضهم البعض ، وتمايزهم كجماعة عن الجماعات الأخرى ضمن هذا الإطار .

وتتكون الهويات أو تتشكل من عوامل حصرت فيما يلي : الجنس أو الأصل أو العرق ،الدين ،التاريخ والتراث ، الجغرافيا (المكان) ، التكوين النفسي ، الثقافي ، الإرادة أو المشيئة ، الاقتصاد ، الدولة ، اللغة .

العلاقة بين الهوية واللغة :

بعد أن توقفنا بعض الشيء عند اللغة والهوية كلاً على حده ، كان من الضروري أن نجمعهما معاً للكشف عن العلاقات وإبراز الوشائج بين اللغة والهوية ، وبيان مكانة اللغة ضمن منظومة عناصر الهوية . فاللغة ليست أداة للتواصل أو وعاء لحفظ التراث الإنساني فحسب ، لكنها هي التي تعطي للإنسان تفرده ، وتبرز مكامن تفكيره وإبداعه ، وتجسد شعوره ، وهي ترتبط جوهريا بهويته ،والهوية من الذات .

وإذا كانت اللغة هي تلك الخاصية الإنسانية التي تعكس العقل الجمعي لفئة من الناس وتبلور رؤيتهم للعالم من حولهم ،وإذا كانت الهوية هي الحقيقة والذات والماهية ، فإن اللغة تعد صورة حية لحقيقة أصحابها وذواتهم وماهيتهم (إن العلاقة بين اللغة وأصحابها علاقة تفاعلية، يصعب معها الفصل بين الطرفين ، فهي هم ، وهم هي ، وبعبارة أخرى هي (اللغة) الهوية ، وهي (الهوية) اللغة)(٢)

وعلم الاجتماع يرى في اللغة أنها ظاهرة اجتماعية ، وتعبير عن تنظيم اجتماعي لمجتمع معين ، وتظهر بوضوح في تعلق كل شعب بلغته ، وارتباط كل أمة بلسانها ، فتبقى اللغة مظهراً من مظاهر الهوية أو الوجود .

١- مصطفى محمد طه – مقال ماذا نعني بالهوية الإسلامية –مجلة الدعوة –الرياض – صـــ١٥٤٤

٢- د. فيصل الحفيان – مقالات متعلقة بالعلاقة بين اللغة والهوية – شبكة الألوكة الإلكترونية – صـــ٩

ويزداد الاهتمام باللغة والهوية معاً ، ويكثر الحديث عنهما في المواقف الحاسمة لدى الأمم والجماعات ، عند ازدهارها وانهيارها .

فاللغة والهوية هما إذاً طرفان لامتداد واحد في مسيرة حياة الإنسان، فالإنسان في جوهره لغة وهوية ، فاللغة شعوره وفكره ، ولسان تعبيره وهي إنتماؤه ، ومن منظومة هذه الأشياء تتركب هويته وتتحدد .

إن اللغة ذات دلالة وسمة للأمة الناطقة بها، بل(إن لغة الأمة دليل نفسيتها وصور عقليتها ، بل هي أسارير الوجه في كيانها الاجتماعي الحاضر ، وفي تطورها التاريخي الغابر ؛ لأن وراء كل لفظة في المعجم معنى شعرت به الأمة شعوراً عاماً ،دعاها إلى الإعراب عنه بلفظ خاص، فوقع ذلك اللفظ في نفوس جمهورها موقع الرضى ، وكان بذلك من أهل الحياة ، وما معجم اللغة إلا مجموعة من المعاني التي احتاجت الأمة إلى التعبير عنها ، فاختارت لكل معنى لفظاً يدل على الجهة التي نظرت الأمة منها إلى ذلك المعنى عندما سمته باللفظ الذي اصطلحت عليه ، فلغة الأمة تتضمن تاريخ أساليب التفكير عندها من أبسط حالاته إلى أرقاها ، يعلم ذلك البصير في أبنية اللغة وتلازمها ، ومن له ذوق دقيق في ترتيب تسلسلها الاشتقاقي .)([١])

مفهوم الثقافة :

مصطلح الثقافة من أكثر المصطلحات استخداماً في الحياة العربية المعاصرة ، لكنه من أكثر المصطلحات صعوبة على التعريف .

فالثقافة في اللغة العربية تعني الحذق والتمكن ، وثقف الرمح أي قوسه وسواه ، ويستعار بها للبشر ، فيكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب ، فالثقافة هي إدراك الفرد والمجتمع للعلوم والمعرفة في شتى المجالات ، ووفق التعريفات والمفاهيم الكثيرة والمتباينة للثقافة تكون الثقافة مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها جماعة أو مجتمع بشري ، بغض النظر عن مدى التطور لديه .

جاء في الموسوعة الحرة :(استعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقي الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات. والثقافة ليست مجموعة من الأفكار فحسب ،ولكنها نظرية في السلوك .بما يرسم طريق الحياة إجمالا ، وبما يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب ، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة التي تتميز بها عن غيرها من الجماعات ، .بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ ، والسلوك والمقدسات ، والقوانين والتجارب . وفي الجملة فإن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف، والعقائد، والفنون، والأخلاق ،والقوانين ، والعادات .

(فإنه يمكن استخدام كلمة (ثقافة) في التعبير عن أحد المعاني الثلاثة الأساسية التالية :

١/ التذوق المتميز للفنون الجميلة والعلوم الإنسانية ، وهو ما يعرف أيضا بالثقافة عالية المستوى .

---

[١] – حبيب أبوقيس – علة اهتمام الأمم بلغاتها – شبكة صوت العربية .

٢/ نمط متكامل من المعرفة البشرية ، والاعتقاد ، والسلوك الذي يعتمد على القدرة على التفكير الرمزي والتعلم الاجتماعي .

٣/ مجموعة من الاتجاهات المشتركة ، والقيم ، والأهداف ، والممارسات التي تميز مؤسسة أو منظمة أو جماعة ما .) (١)

إذن الثقافة بمعناها الواسع هي جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه ، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات ، وأن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته ، والتي تجعل منا كائنات تتميز بالإنسانية .

و(تعريفات مفهوم الثقافة لها دلالتها العميقة في مفهوم الثقافة ، وهي لا تخلو من الإقرار بخاصيتين أساسيتين في الثقافة هما :

١/ أن الثقافة شيء مكتسب ولا صلة لها بالغريزة في الإنسان ، ومن ثم فتوحيدها والمحافظة على أنماطها العامة التي لها علاقة بالهوية تظل دائماً رهن إرادة الإنسان الواعي بوجوده كفرد في أمة ذات هوية متميزة .

٢/ أن الثقافة متبادلة التأثير مع الإنسان ، وتؤثر بصفة خاصة على السلوك الفردي والجماعي.)(٢)

مكونات الثقافة :

تتكون الثقافة من مكونات ثلاثة هي :

١/ العموميات : وتشمل جميع الأفكار والمشاعر، والأشياء المشتركة بين الناس بأحد المجتمعات ، وتتضمن اللغة ، والدين ، والمعتقدات ، والقيم الاجتماعية ، وهي أكثر جوانب الثقافة مقاومة للتغيير .

٢/ الخصوصيات : وهي تلك الظواهر التي لا يشارك فيها سوى أفراد من مجموعات اجتماعية معينة ، مثل المهن ذات المهارات ، وهي أقل مقاومة للتغيير .

٣/ البديلات : وهي الظواهر خلاف السابقتين ، وتشمل الاهتمامات ، والأذواق والمودات ، وهي الأكثر عرضة للتغيير .

العلاقة بين اللغة والثقافة :

هنالك وشائج متينة بين اللغة والثقافة ؛ لأن أي لغة مهما كانت تنتج ثقافة ، وبالمقابل إن أي ثقافة مهما كان مستواها تعتمد في جانب منها على لغة ما ؛ فاللغة دعامة أساسية للثقافة فلا تقوم ثقافة أياً كانت أشكالها ومستوياتها التعبيرية دون حاضن لغوي يحتويها ، ويتفاعل معها وينقلها إلى الآخرين ،

---

١ ـــ ويكيبيديا – الموسوعة الحرة - مادة ثقافة

٢ ـــ مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – عدد خاص – الملتقى الدولي الأول – حول الهوية والمجالات الاجتماعية صـــ ٥٠٥

ويهدي أبناءها والمنتمين إليها سبل التعبير عنها والإبداع فيها ، وإبراز سماتها لديهم ولدى الآخرين . فيتضح لنا الترابط والتداخل بين اللغة والثقافة ، وأهمية كل للأخرى .

يطلق اللغويون على الطرق المختلفة في التحدث بلغة ما مصطلحاً يشمل لهجات معرفة جغرافياً أو ثقافياً ، كما يعرف علماء الاجتماع والأنثروبلوجيا اللغوية الأسلوب التواصلي على أنه الطرق التي تستخدمها اللغة ، والتي تعد مفهومة في إطار ثقافة معينة .

واللغة بتعريفها البسيط هي وسيلة اتصال بين شخصين، الهدف منها التفاهم ، ولكي يحدث التفاهم فلابد من الاشتراك في معرفة رموز هذه الوسيلة ، وما تحويه من معاني سياقية ،واجتماعية ، وثقافية متفق عليها مسبقاً . فاللغة هي منتج إنساني تراكمي وثقافي أنتجته ضرورة تواصل أهل بيئة واحدة بعضهم ببعض، وبما أن اللغة نتاج ثقافي تراكمي فإن الثقافة تضفي بمعاني خاصة على كل كلمة ، وكل تركيب لغوي يستخدمه أهل اللغة ، إضافة للمعنى المعجمي .

فمعرفة معاني الكلمات وتراكيب الجمل دونما معرفة المعنى والاستخدام الثقافي السياقي لكل كلمة وتركيب هي معرفة ناقصة ، وإن أجاد متكلم اللغة التحدث بطلاقة .

(لقد لوحظ العلاقة بين الثقافة واللغة في فترة تعود إلى فترة الكلاسيكية وربما قبلها ، فالإغريق القدامى على سبيل المثال يميزون بين الشعوب المتحضرة و(بار باروس) أولئك الذين يميلون إلى الثرثرة ؛ أي أولئك الذين يتكلمون لغات غير مفهومة.) (١)

فنظراً لأن هناك مجموعات تتحدث لغات مختلفة وغير مفهومة ، فقد يعد ذلك دليلاً على الاختلافات الثقافية أكثر من كونه من السمات الثقافية الأخرى الأقل وضوحاً .

ويرى (فرانزبواس) –مؤسس الأنثربولوجيا الأمريكية – على أن اللغة المشتركة بين المجتمعات هي الناقل الأساس لثقافتهم العامة.

حيث كان (بواس)هو أول علماء الأنثربولوجيا الذين اعتبروا أنه من غير الممكن دراسة ثقافة الشعوب الأجنبية من دون التعرف على لغتهم الخاصة . وبالنسبة لبواس ، فكان يعتقد أن الثقافة الفكرية لشعب ما أنشاها وتقاسمها وحافظ عليها استخدام اللغة ؛ مما يعني أن فهم لغة مجموعة ثقافية ما هو المفتاح لفهم ثقافتهم ، ويوضح بواس أحد المعاني المهمة :(وهو أن الجماعات ذات الثقافات المختلفة قد يتحدثون بلغة مشتركة ، والمتحدثون بلغات مختلفة تماماً يمكن أن يشتركوا في السمات الأساسية الثقافية ذاتها .)(٢)

---

١ – آر. جاأندور – التعليق على أساس علم تشكيل الثقافة الإنسانية – آلان بريان – الأنتروبلوجيا الحالية – ١٩٦٣ – ج٤ صـ ٣٠١

٢– إدوارد سابير – صندوق النشر التذكاري لسابير ص٢٢٨

فالإنسان كائن ثقافي منتج للثقافة ونتاج لها في الوقت نفسه .وتتجلى ثقافته في عدة مظاهر من أهمها اللغة . ومن خصائص الثقافة أنها قابلة للتناقل ، وعملية التناقل تقتصر على الإنسان بوصفه الكائن الوحيد الذي يبدو قادراً بدرجة كبيرة على أن ينقل ما اكتسبه من أشياء إلى الآخرين ، وتعد اللغة العامل الأساس لهذا .

علاقة الثقافة بالهوية :

إن الثقافة بكل مكوناتها ومركباتها تختلف من أمة إلى أخرى باختلاف القيم المرتبطة بالتقاليد والمعتقدات وطرق التعبير عنها .

وللهوية علاقة قوية بالثقافة ، فالهوية هي جوهر الشيء وحقيقته ، والثقافة سمته وسلوكه (والثقافة تحمل إجابة عن سؤالنا عن مفهوم الهوية ، وعندما نتساءل عن الثقافة فإننا نتساءل عما يميزنا عن غيرنا ،والثقافة هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها ، وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع للأشياء فإن الثقافة هي تهذيب النفس بالأفكار: فالأولى عمران و الثانية عمران ؛ لأنهما يمثلان شقي الحضارة التي هي أساس العمران) (١)

فكان التركيز على الهوية الثقافية، وثقافة الهوية، فهما في الحالات العربية والأفريقية، والعربية الأفريقية ترزحان تحت وطأة التهديد بالزوال والإحلال،إحلال أنماط ثقافية جديدة ومغايرة على تلك المجتمعات المغلوبة على أمرها سياسيا، واقتصاديا ، وفكريا. فأصبحت ساحات للتجريب من قبل الغرب بالحصار الاقتصادي، والعزل السياسي ، والغزو العسكري ، والفكري والثقافي .بل لقد تغيرت مفاهيم السيطرة على الشعوب، فمن النمط العسكري إلى الهيمنة الثقافية والأيدلوجية والإحتلال بالولاء والتبعية ويذكر الجابري (أن ثقافة الإختراق تقوم على جملة أوهام هدفها التطبيع مع الهيمنة، وتكريس الاستنساخ الحضاري ،و العمل على مايفضي إلى الإستسلام لعملية الاستتباع الحضاري الذي يفقد الشعور بالإنتماء للوطن أوالأمة ؛وبالتالي تفرغ الهوية الثقافية من محتواها.) (٢) فعلاقة الثقافة بالهوية تقودنا إلى محاولة فهم كل خصوصية ثقافية داخل كل بلد، وتبيان العلاقة مابين العام والخاص، وكيفية المواءمة بينهما، والتعامل مع اختلاف اللهجات والعرقيات والديانات، والهوية بما تحمل من مكون ثقافي يشمل نظاماً قيمياً وأخلاقياً مع ابداع فكري وأدبي ، وفني لكل أمة قادرة في طبيعتها على التفاعل مع غيرها من الهويات الثقافية الأخرى . ومن هنا كان اختيارنا للهوية الثقافية في الحالة السودانية كنموذج يمثل طرفاً يربط الهوية الثقافية باللغة العربية .

١- محمد عماره –الهوية ضمن كتاب التاريخ الإسلامي وأزمة الهوية الصادر عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا–ط٤ س٢٠٠٠–ص٢٤٩

٢- محمد عابد الجابري –قضايا في الفكر المعاصر –بيروت–مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣–١٤٧ص

الهوية السودانية :

إن السودان هو لفظ أطلقه الجغرافيون العرب للدلالة على الشعوب السوداء التي تسكن بلاد السودان (السودان الإقليم) ، فالمصطلح (الاسم) هو في الأساس جغرافي لم يحدد أصول الشعوب التي تقطن بلاد السودان النطاق .ومناخ هذا النطاق من أفريقيا أطلق عليه علماء المناخ اسم المناخ السوداني .يقول أهل التاريخ : (العرب هم أول من أطلق تسمية السودان على أولئك السكان الذين سكنوا تلك الأرض الواسعة الأرجاء بعد أن استوحوا لون البشرة ، حيث أطلقوا كلمة سودان على الأقوام التي تسكن هناك وعلى بلادهم قالوا بلاد السودان .)(١)

وإن السودان كدولة بحدوده الجغرافية المعروفة الآن (قبل انفصال دولة جنوب السودان) ولد مع الفتح التركي المصري للسودان عام ١٨٢١م ، حيث تم الاستيلاء على الجزء الشمالي من السودان ، وألحق به جنوب السودان عام ١٨٧٠م ، وتم ضم مديرية دارفور للحكم المركزي في السودان عام ١٩١٦م .

ومن المهم أن نذكر بدءاً أن الصراع الماثل والذي يدور حول الهوية لا يرجع بأي حال إلى جوهر المكونات ، بل يرجع إلى تسييسها واستخدام آلة الدولة لإعادة تشكيلها ،وبدأ ذلك مع بداية الدولة الحديثة في السودان عام ١٨٢١م . يقول حذيفة الصديق في تتبعه لتطورات مشكلة جنوب السودان : (من المواضيع الرئيسة الأخرى التي ساعدت على تفاقم المشكلة محاولات تحديد ملامح الهوية السودانية المميزة لبلد يتميز بأنه شديد التنوع والتعدد والتباين في كل شبر، ويبدو ذلك واضحاً في التركيبة السياسية والاجتماعية للسكان ،حيث يدعو كثير من مثقفي الشمال إلى الإنتماء إلى العربية ، بينما نجد مثقفي الجنوب وزعمائه يفاخرون بإنتمائهم الأفريقي .) (٢)

فتلك هي التجاذبات التي تتجاذب الهوية السودانية ، وتريد أن تحوز ملامح الثقافة السودانية .

وعند توقيع اتفاقية السلام الشامل بنيفاشا بين حكومة السودان والحركة الشعبية لتحرير السودان في التاسع من يناير ٢٠٠٥م بنيروبي (كينيا) لم يبرح بروتوكول (مشاكوس) أن يلامس عناصر الهوية السودانية في إطار عام يؤكد على قيم الحكم الراشد ، والتفاهم المشترك والتسامح ، والتنوع في الحياة السودانية . ومن ثم أكد البروتوكول على أن الدين والعادات والتقاليد هي مصدر (القوة المعنوية) والإلهام للشعب السوداني في البند (١-٤) من المبادئ المتفق عليها .

---

١ ــ عبدالجليل - تاريخ وحضارات السودان - القاهرة - ١٩٧٢م — صـ١٤١ -١٤٢ .

٢ ــ حذيفة الصديق عمر الإمام — التطورات التاريخية لمشكلة جنوب السودان ١٨٢١م — ١٩٨٩م- أم درمان - الحرم للطباعة - سلسلة مركز محمد عمر بشير — ١٩٩٨م —صـ٤٥

ويرى الجابري أن إشكالية الهوية تطرح جملة من الثنائيات التي لا يمكن القفز خلفها أو تجاهلها وهي : (الإسلام والعروبة ، الدين والدولة ، الأصالة والمعاصرة ، الوحدة والتجزئة.) (١)

والهوية في معناها الاصطلاحي عبارة عن مجموعة صفات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها ؛ لتعطي لشخص أو لشعب معين مميزات يعرف بها ولا يختلط أمره فيها أفراداً وشعوباً وأمماً وقوميات . ويقسم العلماء الهوية إلى ثلاث دوائر تبدأ بالهوية الذاتية ، وتليها دائرة تضم جملة من الهويات الفرعية التي تخضع لمحددات اجتماعية ، وسياسية ، أو ما يسمى بالهوية الوطنية ، ثم نجد الهوية العامة أو الحضارية .

فبينما ظلت الهوية الذاتية ثابتة . نجد أن التطورات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية التي شهدها العصر الحديث قد أحدثت تطوراً في مفهوم الهوية الجماعية أو الوطنية فأصبح المفهوم المعاصر للهوية الوطنية هو أنها حالة سياسية إرادية خالصة تقوم على الاتفاق ، وعن وعي تام بين سكان وطن معين أو إقليم معين على العيش معا في مجتمع واحد، هو مجتمع الدولة. (درج الباحثون وعلماء السياسة على تقسيم القومية في رؤاها النظرية إلى بعدين : بعد ذاتي وبعد موضوعي ، حيث يلزم عند النظر إلى القومية في بعدها الذاتي توافر عناصر مشتركة تشمل : اللغة ، الدين ، الجنس أو العنصر ، فوحدة هذه العناصر تمثل أساس النظر للقومية خلال معيارها الذاتي ، أما البعد الموضوعي في النظر إلى القومية فلا تلزم فيه وحدة هذه العناصر ، بحيث يكتفي بتوافر (الرغبة)، في العيش المشترك خلال أسلوب الحياة .) (٢)

في إطار الهوية الجماعية أو الوطنية يشير بعض علماء الاجتماع إلى أن مكونات الهوية تتجسد في العنصر ، والدين ، واللغة ، وتلك العناصر أو المكونات الثلاثة هي الأبرز والأهم والسائدة أو الطاغية على بقية مكونات الهوية في الحالة السودانية .

ونفصل الحديث عن كل عنصر منها على حده ، ثم نبين حالتها الجمعية في الهوية السودانية .

العنصر :

قبل قدوم العرب المسلمين للسودان كانت تسكن ثلاث مجموعات عرقية كبيرة هي الأقدم في السودان :

النوبيون : سكنوا السودان منذ حوالي ٥٠٠٠ سنة

البجة : سكنوا السودان منذ حوالي ٤٠٠٠سنة

الزنوج : بدأ تزايد العنصر الزنجي في أفريقيا قبل ٧٠٠٠سنة .

وهاجرت إلى السودان عناصر من خارجه منذ القرن السابع الميلادي ، بل قبل ذلك . أبرز تلك العناصر العرب قبل الإسلام .

---

١ ـــ محمد عابد الجابري – اشكالية الفكر العربي العام - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٠م – ج٢ – صـــ١٠٢

٢– د . طه بدوي - النظرية السياسية - ط٢ – القاهرة - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣م – صـــ٣٢ -٣٥

(ومن الثابت تاريخيا أنه في العهد الأموي هاجرت العديد من القبائل العربية إلى أرض السودان ، واستقرت في بلاد النوبة بين قبائل البجة لأسباب سياسية واقتصادية ودينية .)(١)

ويبدو أن العصر العباسي شهد تحولا واضحا في مجال الهجرات العربية إلى بلاد السودان وكانت السلامة والأمان اللذان تتمتع بهما الجماعة الأولى تدفع بالثانية والثالثة للهجرة إلى هناك ، فالسودان أهل محبة وعدم اعتداء على العرب . (٢)

وقد قسم بعض دارسي أفريقيا عرب السودان إلى مجموعتين كبيرتين : إحداهما المجموعة الجعلية الدنقلاوية ، وهي تقابل المجموعة العدنانية في التقسيم العربي ، وهؤلاء سكنوا السودان الشمالي .

والثانية المجموعة الجهنية وهي تقابل قحطان واليمن ، وهم يسكنون في مواطن متفرقة في السودان ، تمتد من الشرق إلى الغرب . ويعتقد أن المجموعة الأولى كان لها أثر كبير في عمليات نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان من المجموعة الثانية .(٣)

وكانت الهجرات العربية- على ما يبدو بفضل محبة السودان وعدم وجود ردة الفعل السلبية- تتدفق باتجاه السودان، ففي عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨م خرجت أعداد كبيرة من بني بكر، وبني عمر، وبني شريف ، وبني شيبان، وبني الكتر ، وبني هلال ، وغيرها ، واستقرت في بلاد السودان .(٤)

وبعد توقيع اتفاقية (البقط) بين المسلمين والنوبة عام ٦٥٢ للهجرة بدأ العرب يتسربون إلى السودان جماعات وأفرادا حاملين معهم الإسلام ، ساعين وراء المرعى والتجارة ، وبدأ العرب في توطيد نفوذهم السياسي شمال وشرق السودان عن طريق التصاهر مع النوبة والبجة ، وقد استغلوا نظام الوراثة عن طريق الأمر السائد آنذاك في السودان ، فاستطاعوا حكم مناطق واسعة من السودان ، إضافة إلى أن حملهم للإسلام ولثقافة راقية مقارنة مع الثقافات السائدة أهلهم ليخضعوا الآخرين لهم .

ويمكن القول بأن العرب قد اتصلوا بالسودان عبر مداخل ثلاثة : طريق المرتفعات الأرترية من جهة الشرق ، وطريق مصر في الشمال ، ومباشرة عبر البحر الأحمر في وقت مبكر قبل الإسلام بحثاً عن المراعي الخصبة ، والتجارة ، وأن العرب قد أثروا في التركيبة السكانية في بعض أجزاء السودان، حتى قبل القرن السابع الميلادي .

١- عبد الرزاق الجاسم - العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة - رسالة ماجستير - جامعة الموصل ١٩٨٠م - صـ ٣٤ -٣٥

٢- عبدالله الألوري - موجز تاريخ نيجيريا - بيروت - صـ٣٥

٣- محمد عوض محمد - السودان الشمالي قبائله وسكانه - القاهرة ١٩٥١م - صـ ١٦٣

٤- يوسف فضل حسن - مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي - الخرطوم - ١٩٧٢م ص ١٣

وفي السودان تتعدد الأعراق والثقافات ، به نحو ٧٥٠ قبيلة تتحدث ٥٩٧ لهجة ، والقبيلة في السودان وحدة اجتماعية ، واقتصادية تمثل مجتمعاً متماسكاً بولاء طوعي يجذب الفرد نحو الجماعة لما توفره له من حماية وهوية .

فرغم هذا الكم الهائل من القبائل إلا أن آليات الإنسجام والتعايش متوفرة في السودان ؛ فقد انتظمت حياة القبائل السودانية في مؤسسات قديمة قدم المجتمع السوداني نفسه .

نشأت تلك المؤسسات داخل القبائل السودانية وتطورت معها عبر السنين ، وهي الدار ، الأعراف ، وسلطة القبيلة، هذه المؤسسات يكمل بعضها بعضا. فالدار تمثل الإطار الجغرافي للقبيلة أو القبائل مثلاً (دارفور ، دار الرزيقات ، دارحمر ، دار جعل ، دار مساليت ، دار الجوامعة ، ....الخ) .

أما العرف والأعراف فتمثل الشرائع والقوانين ، والتقاليد المرعية التي تنظم الحياة داخل القبيلة ، ومع القبائل الأخرى ، وسلطة القبيلة تسمى إدارة القبيلة ، وتسمى الإدارة الأهلية ، والتسمية وجدت مع الحكم الثنائي في السودان (١٨٩٩م – ١٩٥٦م) .

ومن منظومة القبائل هذي خرج الإنسان الفرد السوداني ، ولكي تكتمل الصورة نقف على أهم جوانب شخصية الإنسان السوداني .

الشخصية السودانية :

يشار إلى الشخصية بوصفها كينونة إنسانية ، تتشكل في سياق التفاعل الذي يقوم بين الفرد وشروط وجوده الاجتماعية ، والثقافية . والشخصية مفهوم يتميز بطابعه الإنساني إذ يغطي الظاهرة الإنسانية دون غيرها من الظواهر، ومن هذا المنطلق يحتل مفهوم الشخصية مكانا يتميز بالخصوصية والأهمية في مختلف اتجاهات المعرفة الإنسانية وتقاطعاتها. وقد حدد (جوردن البورت) العلاقات التي تقوم بين هذه المفاهيم المختلفة ، ويحددها في محاور أربعة هي :

- المظهر الخارجي والاشتقاقات الفردية لفكرة القناع.
- الدور الذي يقوم به الفرد .
- الفرد الذي يؤدي الدور .
- القيمة التي يتميز بها الشخص.

وينطلق البورت من هذه المعطيات ليقدم تعريفاً متوازناً للشخصية قوامه أن: (الشخصية هي تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية تحقق للفرد تكيفه مع الوسط الاجتماعي ؛ وهذا يعني أن الحياة الداخلية للإنسان تتجه في سياق تفاعلاتها مع العالم الخارجي نحو بناء وإعادة بناء الشخصية الإنسانية في حركة دائمة من أجل وحدتها وكمالها .) (١)

---

[1]– في جدل الثقافة والشخصية (قراءة أنثروبلوجية) موقع ومنتديات اجتماعية – عرض فهد عبدالله القيسي

إن موضوع الشخصية السودانية موضوع في غاية الأهمية ، خاصة عندما يراد دراسة الهوية الثقافية وارتباطها باللغة العربية في السودان .

فالشخصية السودانية شخصية متفردة ؛ هذا التفرد اكتسبته ،من معطيات تاريخها وثقافتها العريقة ، والشخصية السودانية وليدة بيئات متعددة ومتنوعة ؛ فالسودان جغرافياً كائن في أفريقيا ، وتاريخياً الهجرات العربية وغيرها تمثل عوامل مؤثرة في الشخصية السودانية . ونتيجة كل ذلك تتميز الشخصية السودانية بصفات وخصال لا تتوفر في كثير من شعوب العالم ، ومن تلك الصفات : صفة التسامح وقبول الآخر، والاعتزاز بالنفس ورفض الظلم ، الشجاعة والكرم، الشهامة والنخوة ، والشعور بالإنتماء لهذا الوطن العزيز .

الدين :

شهد السودان كل أنواع التدين :

- كانت حضارة كوش القديمة متأثرة بالديانة المصرية . الممالك المسيحية (علوة ، المقرة ، نبته) .

دخل الإسلام السودان دينا بلا دولة . تقول بنت الشاطئ :(والسودان وإن تأخر دخوله رسمياً في الدولة الإسلامية إلى القرن العاشر الهجري لم يلبث طويلاً حتى غلب عليه المناخ الديني ، وتوهجت نار القرآن في البوادي والنجوع، وازدهر التصوف تأثراً بطبيعة البيئة ومزاج الإقليم ، فكان لمشايخ الطرق الصوفية سلطان لا يدانيه سلطان الملوك والحكام .....

ومنذ دخل الإسلام هذا القطر الشقيق ، أخذ لواء القيادة للأحداث فكان العامل الديني هو الموجه الأكبر لتاريخه شعباً ودولة .) (١)

والإسلام والصوفية انسابا انسياباً سهلاً وهيناً لم يصحبه أي توتر أو صراع ، ويمكن أن نؤرخ لبداية (الصراع) والتوتر الديني بقدوم التركية المصرية ؛ حيث صحبتها ظواهر دينية لم تكن موجودة من قبل . اصطحبت حملة الفتح معها علماء وفقهاء سنيين على المذاهب الأربعة ؛ بغرض تبرير حملة الفتح، وأن فتح السودان هو ضم السودان للخلافة الإسلامية . وكان محور عملهم إدانة التدين الذي يمارسه السودانيون ممثلاً في التصوف .

بعد الفتح التركي المصري جاءت المهدية منطلقة من أيدلوجية دينية فألغت المذاهب والطرق الصوفية ، رأت أن الخلاص في اتباع الفكر الديني المهدوي ؛ وبذلك دخلت في صراع مع مراكز القوى الداخلية والخارجية .

وكان أكثر تدخل للسياسة في الدين في عهد الاستعمار الذي وضع قانون المناطق المقفولة عام ١٩٢٢م . الهدف منه إعطاء جنوب السودان هوية دينية تختلف عن شمال السودان .

كانت الثقافة الإسلامية الدينية زاحفة نحو جنوب السودان بذات التلقائية التي انسابت بها في كل السودان .

١– عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ – لغتنا والحياة – دار المعارف – مصر –ط٢ –صـــ٢٣ .

نجحت تلك السياسية الاستعمارية في وقف الأثر العربي الإسلامي (اللبس ، الأسماء العربية) في الجنوب ، كما نجحت الكنيسة في إيجاد صفوة جنوبية مشبعة بأفكار تقوم على رفض كل ماهو شمالي ، ديناً كان أم لغة ، أم عنصراً .

برز أثر الصفوة بوضوح عندما تبنت الأحزاب السودانية التقليدية الدعوة إلى الدستور الإسلامي ، ثم فيما بعد الشريعة الإسلامية ، يظهر دورتلك الصفوة في الخلاف الأيدلوجي والفكري، ثم قيادة الحرب الأهلية في عهد كل الحكومات الوطنية حتى بعد أن خرج المستعمر ، وتطور الأمر حتى توقيع اتفاقية السلام في السودان التي أفضت إلى انفصال الجنوب كدولة قائمة بذاتها .

فالدين كمكون للهوية لم يكن قبل ظهور الدولة الحديثة في السودان مكان توتر أو صراع . ويمكن تلخيص الواقع الديني في السودان بأنه يتصف بالتعدد النسبي ، فهناك الإسلام كدين لغالبية السودانيين، كما أن هناك الديانة المسيحية بمذاهبها المختلفة ، بالإضافة إلى بعض الديانات والمعتقدات الدينية المحلية .

وبالتالي فإن تقرير الإسلام كعلاقة انتماء ديني حضاري للشخصية السودانية على الوجه الذي لا يتناقض مع هذا التعدد النسبي والتعايش يرتكز إلى موجهات نذكر منها :

- إن تعدد الإنتماء الديني في المجتمع السوداني لايلغي وحدة هذا المجتمع ، مثلما كان تعدد الإنتماء الديني في المدينة المنورة لم يلغ إنتمائهم إلى المدينة كوطن .
- إن معنى الإسلام هنا لا يقتصر على الإسلام كدين وشعائر ، بل يمتد ليشمل الإسلام كحضارة ،أى كمصدر لكثير من الحضارية والثقافية للشخصية السودانية (المسلمة وغير المسلمة) .
- إن الإسلام لم يلغ الوجود الحضاري القبلي والشعوبي السابق عليه ، بل حدده كما يحد الكل الجزء ؛ وذلك بإلغاء ما يناقضه من معتقدات ومفاهيم وعادات ، وغيره ، والإبقاء على مالا يناقضه ، ليشكل هذا التحديد ما يدعى بالتدين الشعبي السوداني .
- إن إنتماء المسلمين في السودان إلى الأمة الإسلامية لا يلغي إنتمائهم إلى السودان كوطن .
- تقرير الحرية الدينية ، ممثلة في حرية الاعتقاد ، وحرية ممارسة الشعائر ، والأحوال الشخصية لأصحاب الديانات الأخرى التي قررها الإسلام ، و يؤكدها تاريخ السودان ؛ حيث كان دخول الإسلام إلى السودان دون فتح (اتفاقية البقط) ، فضلاً عن قيام السكان المحليين المستعربين (النوبة – البجة ،الممالك الإسلامية المحلية ، (الفور ، الفونج ، تقلي ، المسبعات ، الكنوز) بدور أساسي في نشر الدعوة الإسلامية في السودان ، ومساهمة الطرق الصوفية التي تتميز بالدعوة السلمية في نشر الإسلام في السودان أو ما يعرف بكسب الآخر وتسويق الذات .

وتأتي أهمية الدين كعنصر من عناصر الهوية يتحكم في ملامحها ؛ حيث أنه من الدين تنبثق مجموعة من القيم التي ترتبط بهذا الدين ، وتحدد ملامح أتباعه، وقد ظل الإسلام هو الهوية لشعوب كثيرة في مناطق عديدة ولا يزال ، ولاسيما في السودان .

اللغة العربية في السودان :

اللغة العربية تتميز عن اللغات الأخرى بأنها جزء من الدين ، لا يمكن أن تنفصل عنه . ذكر ابن تيمية :(إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله ، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون .)) (١)
اللغة العربية في السودان كانت منسابة مع الدين ، وأحياناً تسبقه .

جاء تدخل الدولة في أمر اللغة في فترة الحكم الثنائي ، سعى الاستعمار لفرض لغته فأصبحت الانجليزية لغة دواوين الدولة ، ولغة التعليم (العام والعالي) وكانوا يراهنون على شيوع لغتهم حتى وسط العامة . لكن رسوخ الثقافة العربية الإسلامية في شمال السودان وقف دون تحقيق آمالهم .أصبحت اللغة الانجليزية لغة الصفوة الحديثة في جنوب السودان . ففي كل لجان الدستور في البلاد ماذكرت اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد إلا وطالب ممثلو الجنوب بذكر اللغة الإنجليزية .

فاللغة العربية اختارها السودانيون كلغة رسمية لهم طواعية واختياراً ، والأمر الواقع في حالة السودان اليوم يبين أن سيادة اللغة العربية سيادة تلقائية في السودان ، ستظل مكوناً للهوية في السودان ووعاءاً حاضناً للثقافات المتعددة في السودان .(وفي هذه المرحلة كانت العربية تتعامل مع اللغات الوطنية مباشرة دون مترجم أو وسيط، على أوسع نطاق غير محدود المجال الرسمي أو الديني . تطوع حيناً وتتساهل لكي تلتقي مع لغة الجماهير ،وتجذبهم أحيانا بقوتها وحيويتها ، فيأخذون منها قدر طاقتهم ، ثم ما لبثت العربية أن اجتازت مرحلة التبادل ، أخذاً وعطاءً ، تأثراً وتأثيراً ، تنتصر على اللغات الوطنية التي تركت المجال لهذه اللغة القوية المنتصرة المستجيبة لحاجات حياتهم اللغوية في يسر وسخاء ، الواعية بدورها الجليل في تعريب ألسنة شعوب عريقة في الحضارة والتاريخ .) (٢)

واللغة العربية في السودان لم تشذ عن القاعدة اللغوية العامة التي تقول: (وجود لغة عليا للفكر والأدب مع لهجات محلية للتعامل ظاهرة طبيعية عرفتها العربية من قديمها الجاهلي، وتعرفها الدنيا في سائر اللغات الحية .)) (٣)

وللغة دخل في تحديد هوية ومكانة المتحدث الاجتماعية أيضاً ، فعادة ما يطلق اللغويون على الطرق المختلفة في التحدث بلغة ما، مصطلحاً يشمل لهجات معرفة جغرافيا أو ثقافياً، ولغات أو أساليب تحديد

١- ابن تيمية - اقتضاء الصراط المستقيم - ص ٣١

٢- بنت الشاطئ – مرجع سابق - ص ٦٣

٣- المرجع نفسه والصفحة .

المجموعة الفرعية ذاتها ، وتميزها عن غيرها .كما يعرف علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا اللغوية الأسلوب التواصلي على أنه الطرق التي تستخدمها اللغة والتي تعد مفهومة في إطار ثقافة معينة .

وهذه الطرق المستخدمة هي ماعرفت باللهجات (وتتكون اللهجات بفعل مبدأ حتمية التفرع ، يتحكم قانون التفرع في اللغات ، حيث تتعرض لظروف معينة مثل الانتشار بالنسبة للعربية الفصحى . يترتب عن التفرق في البلدان والمناطق المتباعدة تولد لهجات مختلفة تختلف وتتعدد باختلاف وتعدد الألسنة والمجموعات وتقاليدها ، ونظمها وأعرافها وبيئاتها.) (١)

فاللهجة السودانية هي تعبير عن جمع الواقع اللغوي السوداني بين التعدد والوحدة ،حيث يتمثل التعدد اللغوي في احتفاظ هذه الجماعات القبلية والشعوبية السودانية بلهجاتها القبلية، ولغاتها الشعوبية القديمة ،بينما تتمثل الوحدة اللغوية في أن اللغة المشتركة بينها بصرف النظر عن أصولها العرقية، ولهجاتها القبلية أو لغاتها القديمة هي اللهجة السودانية كنمط خاص لاستخدام اللغة العربية .

واللهجة السودانية تعد رابطاً بين القبائل التي أصولها عربية . وغير العربية من جهة ، وبين القبائل التي أصولها غير عربية من جهة أخرى ؛ وتعرف بين المجموعات ذات الأصول غير العربية في الجنوب بعربي جوبا .

والتعليم والإعلام في السودان أصبحت وسيلتهما اللغة العربية ، إلا أن كل ذلك لا يعني أن اللغة العربية هي الوحيدة في كل السودان . وهناك من يراهنون على اقتلاعها ، فالحرب ضد العربية لن تنتهي لأنها ليست لغة محايدة ، بل إنها لغة محملة بالمضامين الحضارية والثقافية ، والدينية ، شأنها في ذلك شأن كل لغة عالمية حية .

ومماسبق وغيره يمكن تلخيص الواقع اللغوي السوداني بأنه يتصف بالتعدد النسبي الذي لايتناقض مع الجمع بين الوحدة والتعدد على هذا المستوى ، فهناك اللغة العربية كلغة حياة لكثير من الجماعات القبلية السودانية ، وفي الوقت ذاته فإن كثيراً من الجماعات القبلية الشعوبية احتفظت بلغاتها الشعوبية القديمة أو لهجاتها القبلية ، وبالتالي فإن تقرير العربية كعلاقة إنتماء قومي إلى أمة على الوجه الذي لايتناقض مع هذا التعدد النسبي يقتضي تقرير أنها ذات مضمون لساني حضاري لاعرقي (ليست العربية فيكم من أب وأم ؛ إنما العربية اللسان ؛ من تكلم العربية فهو عربي) ، فهي تعني أن اللغة العربية هي اللغة المشتركة بين الجماعات القبلية والشعوبية السودانية بصرف النظر عن أصولها العرقية أو لهجاتها القبلية ، والحديث هنا ليس عن اللغة العربية في ذاتها بل كلغة مشتركة متمثلة في اللهجة السودانية كنمط

١– عبد الغني أبو العزم ،عربية الصحافة– منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب١٩٩٨م ص٧

خاص لاستخدام اللغة العربية ذاتها ، ومصدر الخصوصية أنها محصلة تفاعل اللغة العربية مع اللهجات القبلية والشعوبية السابقة على دخول العرب والإسلام السودان .

الثقافة السودانية :

اهتم الباحثون والكتاب السودانيون من علماء الاجتماع والسياسة والآثار بدراسة الثقافة السودانية لتحديد هويتها ومعرفة أصولها . يمكن تلخيص آراء الباحثين في قضية الثقافة السودانية في شكل مدارس فكرية يمكن الإشارة إليها في الآتي :

١ / المدرسة التاريخية :

ترى هذه المدرسة أن أي حدث تاريخي رئيس هو بمثابة حقيقة ثقافية جديدة ، والتي قد لاتلغي الثقافة السابقة ، ولكنها تمثل القوة الجديدة .تحتكم هذه المدرسة لوقائع التاريخ .

ويرو أن الممارسات الحالية ، والسلوك الحالي للإنسان السوداني يحتوي على عادات وتقاليد وممارسات نوبية كانت موجودة في المجتمع النوبي . توجد هذه الممارسات في مختلف المجتمعات البعيدة عن النوبة جغرافياً وبيئياً ولغوياً ، بل إن اللغة العربية تحوي بعض المفردات النوبية .

ويرو أن الشخصية السودانية متجذرة في الممالك السودانية القديمة ، ويركزوا بصفة خاصة على أهمية مملكة الفونج، باعتبارها فترة بدء الحكم العربي الإسلامي في السودان، ويشيروا إلى أن نشر الإسلام كان جزء من تغيير حضاري كامل تغلغل إلى أعماق الشخصية السودانية . وكان ذلك تحولاً حضارياً تناول كل مناشط الحياة في السودان .

٢ / مدرسة الصراع / الحوار الثقافي :

ترى هذه المدرسة أن هنالك ثقافات متعددة ومتنوعة في السودان ،وأنها في حالة تفاعل وتداخل لأسباب تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية . ينظر إلى هذا الحوار من زاويتين :

أ – أنه صراع إنساني مسالم ؛ بمعنى أن هنالك ثقافات مختلفة ومتعددة ومتصارعة ، ولكن صراعها يتصف بصفة المسالمة والإنسانية .

ب – هناك ثقافات متعددة ومتنوعة ولكن هناك ثقافة واحدة رئيسة وقوية تمارس نوعا من الهيمنة على الثقافات الأخرى ، والتي تصارع من أجل البقاء والحفاظ على كينونتها .

إن ثقافة وسط السودان (الثقافة العربية الإسلامية) لها الهيمنة ولكنها ليست الوحيدة ، توجد بجانبها ثقافات أخرى هي ثقافات الأطراف . وتنتمي لها مجموعات سودانية متعددة ، فالحوار بين الثقافات مهم مع مراعاة الآتي :

أ – يجب الاعتراف بالثقافات الأخرى للأقليات .

ب – تأمين حق الأقليات في التعبير عن الثقافة الخاصة بها .

ج – التركيز على مجالات الالتقاء أكثر من نقاط الاختلاف .

كل ذلك يمهد الأجواء لإجراء حوار بين المكونات الثقافية للأمة السودانية .

٣/ مدرسة الوحدة في التنوع – مفهوم السودانوية :

الفكرة الأساسية في هذه المدرسة تتلخص في أن السودان بطبيعته تتعدد فيه الأعراق والأجناس والثقافات مع اتساع رقعته الجغرافية ، وتنوع البيئات الطبيعية فيه ، هذا التنوع السلالي والثقافي والبيئ أنتج تكوينات ذات سمات مميزة .

يرى أصحاب هذه المدرسة أنه بالرغم من التعدد والتنوع والتباين في الثقافات السودانية إلا أنها مكملة بعضها البعض .

يتكامل مع مفهوم الوحدة في التنوع مفهوم (السودانوية) والذي انتشر كثيراً في الفترة الأخيرة .

إن السودانوية تعتمد على النظر للثقافة السودانية من داخلها ، حيث تعتمد على الانتشارية التي تعد الثقافة السودانية امتدادا لحضارات أخرى مجاورة (مصر، عربية إسلامية) ، وإنما هي مكون مختلف ومستمر .

والثقافة السودانية في نظرهم مكونة من ثلاث شعب سودانية :

أ – هي تراث نازل ومستمر من أقدم العصور تأثراً .

ب – تأثر بشعبة أخرى أو تيار آخر دائم الأثر والتدخل هو التيار الأفريقي الأقدم ، وتأتينا من محاور كثيرة .

ج – شعبة ثالثة أو تيار ثالث أسيوي عربي قديم هو الآخر .

وكما يلتقي الأبيض والأزرق والعطبراوي ليكونوا النيل ، تصب كل هذه الروافد في نهر السودانوية القديم .(السودانوية تعني منحى تاريخياً ثقافياً في دراسة الحضارة السودانية حيث اكتشف العلماء وجود حضارة سودانية متفردة ومختلفة بجانب الحضارة المصرية القديمة . أكد ذلك علماء الآثار والتاريخ أمثال وليم أوفر . خلق ذلك وعياً للعلماء الأوربيين والأمريكيين بالثقافة القومية السودانية .) (١)

سعت هذه المدرسة لتشجيع كل ماهو سوداني ، هذا المنحى الجديد أفرز ثقافة هجينة فهي أفريقية أصلاً ، ولكنها عربية الملامح واللسان .

المدرسة العنصرية :

تركز هذه المدرسة على العنصر كمحور مهم في التكوين الثقافي، يضاف إليه مكونات تاريخية وعوامل اجتماعية . تهتم هذه المدرسة بالعنصر في تحديد طبيعة المجموعات السكانية في السودان ، وما ينطبق عليها من أنماط سلوكية . ينقسم أصحاب هذا الرأي في أشد تطرفه إلى ثلاث فئات :

١– د . محمد كباشي عبدالله – محاضرات في الدراسات السودانية – جامعة الخرطوم – كلية الآداب ٢٠٠٨م – ص ٩٥

١ – المجموعة الأولى : ترى أن العنصر العربي يشكل الأغلبية العددية وله الغلبة الحضارية لسمو ثقافته ، وبالتالي يرى أحقيته في الهيمنة والسيطرة .

البراهين عند هذه الفئة تاريخية : دخول العرب السودان سبق ظهور الإسلام في السودان . تعزز وجود العرب بعد دخول الإسلام السودان واعتناق أهل السودان الإسلام ، وتزاوجهم مع العنصر الوافد، ويرجع أنصار هذه الفئة كل عناصر الثقافة السودانية إلى الأصل العربي .

٢ – المجموعة الثانية : تسعى لتأكيد أن السودان ينتمي إلى العنصر الأفريقي الزنجي ، جاءت هذه الفكرة كرد فعل للفئة الأولى . يعتمد مروجو هذا الاتجاه على الزنوجة .

٣ – المجموعة الثالثة : تسعى هذه الفئة للتوفيق بين الرأيين السابقين ، وتقول إن السودان خليط من العنصرين العربي والزنجي . تم ذلك عبر التزاوج ، وتداخل اللغة ، وتمازج السمات الجسدية والثقافية في واقع الحياة اليومية .وجد هذا الاتجاه رواجاً ، وصار من أنشط الحركات الفكرية في السودان

التنوع الثقافي في السودان :

يجاور السودان دولا كثيرة ومختلفة، كذلك تتنوع فيه البيئات الطبيعية ، من الصحراء إلى الغابات ، ومناخ السافنا ، به الكثير من الأنهار والسهول ، اجتذب النيل الكثير من الهجرات منه وإليه عبر فترات طويلة . لذلك ليس بمستغرب أن تتعدد ثقافات السودان ، وتتعدد طرق ووسائل عيش السكان .

فالسودان بهذا الوصف جسر العالم العربي لأفريقيا، وهو نموذج أفريقي مصغر وملتقى الطرق ، خليط من الأجناس والألوان .فالسكان منذ القدم وما يزالون في حركة مستمرة في كل بقاع السودان . بجانب السكان الوطنيين نجد أجناساً من تشاد ونيجيريا وإثيوبيا وأرتريا ، جاءت إلى السودان نتيجة حركة الرعي والتجارة ، والحج ، والهجرات الطوعية أو القسرية ، بفعل الظروف الطبيعية أو الحروب ، أو الضغوط السياسية والاقتصادية ، ومعلوم أن أكبر الهجرات ذات الأثر الكبير في السودان الهجرة العربية التي تعد ذات أكبر أثر ثقافي واضح . ظهرت الثقافة السودانية بأنماطها الأفروعربية كأظهر مايكون في السلوك والقيم والعادات والتقاليد والطقوس والموروثات ، فالثقافة السودانية المتنوعة ورثت كماً هائلاً من التراث الأفريقي بجانب عطاء الثقافة العربية الإسلامية الثر .

التحديات التي تواجه اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية في السودان

بعد انفصال دولة جنوب السودان التي تحكمها الحركة الشعبية والتي ترفع شعار تحرير السودان من الوجود العربي والإسلامي ، ظهرت جملة من التحديات والمهددات من قبل تلك الدولة الوليدة المدعومة من قوى خارجية عديدة ، تمثلت في التهديد العسكري والأمني ، والاقتصادي ،والسياسي ، ولكن التهديد الأخطر والتحدي الأكبر يتمثل في تغيير اللسان العربي الذي ارتضاه أهل السودان واختاروه طواعية واختياراً . والدين الإسلامي الذي عاش السودانيون جميعاً في كنفه في سلام وأمن وإخاء .

والعالم الجديد الآن بعولمته التي يريد أن يفرضها ، ومصالحه التي يريد أن يحققها لا يألو جهداً في محاربة اللغة العربية ،هذه الهوية التي تربط بين الناطقين بها والإسلام ، هذا الدين الذي يجمع بين خمس سكان العالم .

يقول صمويل هنتنجتون صاحب كتاب (صراع الحضارات):(الذي يؤكد أن اللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة .) (١)

في إشارة واضحة إلى أن الساحة الأخطر للصدام هي ساحة اللغة والدين .

إن اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهوية الفرد ، وحيث تضعف لغة واحدة تزول معها ثقافتها ، إن للغة العربية حضوراً دينياً ووجدانياً وثقافياً وحضارياً في تاريخنا وضمائرنا ، فنزول القرآن الكريم بالعربية أوجد ترابطاً مقدساً بين الإسلام والعربية ، وقد انتشرت الحضارة الإسلامية باللغة العربية ، وكانت ومازالت اللغة العربية جوهر الثقافة العربية .

والتحديات تكمن في أنهم يبشرون بنمط جديد من الحياة في العالم ، نمط يتخطى الروابط الوطنية والقومية ، ويتحلل من الإنتماءات الثقافية المحلية والدينية ، ويزعمون أن المجتمعات ذات التوافق الثقافي والتجانس العقائدي مهددة بالجمود والتخلف ؛ وهم بذلك يعيدون تعريف الهوية الثقافية والوطنية ، ويصيغون مكونات جديدة لها يتعدد وفقها الولاء والإنتماء لأكثر من وطن وأكثر من ثقافة ، وهذا يتطلب أن تكون المناعة الثقافية حصينة لاتستجيب للاستلاب والغزو، خاصة في السودان الذي يعد نموذجاً للصراع القديم والجديد .

والمهم في هذه المسألة أن ينظر إلى التعددية اللغوية النسبية في السودان على أساس أنها مصدر إبداع وليست عاملاً للفرقة والتمزق ، خاصة إذا استخدمت القضية اللغوية لأغراض سياسية مصلحية ضيقة .

ويجب أن نفهم ونعي أن قوة الهوية الثقافية السودانية من قوة اللغة العربية ؛ حيث أن اللغة تمثل خط الدفاع الأول للمواجهة والذي إذا انهار تنهار بعده كل الخطوط . واللغة هي النقطة التي يلتقي عندها الوعي الجمعي للأمة .

ومن المتداول بين المختصين في علم اللغة الاجتماعي أن الأمم ذات الثقافات المترسخة لاتستطيع النهوض دون الاعتماد على لغاتها ، وأن للغة دوراً بارزاً في عملية النهوض ، وأثراً بالغاً في التنمية بمفهومها الشامل ؛ ولذا يظهر أن بين اللغة والمجتمع تعاضداً لا انفصال منه .

١– صمويل هنتنجتون – صدام الحضارات – نيويورك ١٩٩٦م – ص٥٩

وأن اللغة العربية هي الوطن الروحي للعرب جميعاً، وأنها اليوم تمر بمشكلات، ومشكلات اللغة ليست ذاتية ، وإنما تكمن فينا نحن مستخدميها ، فإذا ما انصلح حالنا على مختلف الصعد لاشك ينصلح حال اللغة .

ويجب أن تكون البداية بمعالجة المسألة اللغوية وتداعياتها في مجالي الثقافة والإنتماء وأن نقارب العلاقة القائمة بين التطور اللغوي والحراك الاجتماعي ، خاصة عند الشباب حيث يتأثر شبابنا باللغات الأجنبية بسبب كثرة الوسائل الإعلامية ، وهي الحاضن الأساس لهذه اللغات ، والمروجة والمزينة لها لدى المتلقين .

وتمتد المسألة وتتسع حيث نجد أن العرب يترعون بشكل مطرد إلى أن يشاكلوا الغرب بثقافته ، ويقلدوه في سلوكه ومظاهره وممارساته ، ويتشبعون بذلك فإذا ما أرادوا أن يعبروا عن أنفسهم عبروا باللغات الأجنبية ؛ لأن التعبير يتبع الشعور .

وعندما تفوقت الثقافة العربية التي تشكل الوعاء الحاضن للعربية انتشرت العربية وارتقت فهي القادرة على التعبير في مختلف المناحي ، ولكن عندما تغربنا ثقافيا غاب دور اللغة العربية وأصبح الدور للغات الأجنبية .

وفي هذه الآونة كثرت الدعوات ، ونصبت المنابر، وعلت الأصوات لإخلاء السودان من الوجود العربي لغة وثقافة ، والحضور الإسلامي ديناً وحضارة ، ونستعرض بصورة مختصرة اقتباسات من تلك الأصوات حتى نبين خطر سهامها المسمومة التي تريد أن تقطع لسان هذا البلد العربي ، وتمزق نسيج ثقافته المتعددة والمتعايشة والمتسامحة فمن قولهم :(أ زمة الهوية في السودان متاهة قوم سود ، ذوو ثقافة بيضاء. ما وددت أن أكون غير ذلك الرجل الذي يرقد تحت جلدي ،والذي لابد أن أعرفه.) (١)

وأرجعوا الهوية ومكوناتها إلى نعرات عنصرية تزدري كل ماهو عربي أو ينتمي إلى العرب (فالشماليون يفكرون في أنفسهم كعرب ، ولكن العرب الآخرين لهم رأي آخر. يمثل عرب الشرق الأوسط ، وخاصة عرب الجزيرة العربية ، والهلال الخصيب ، لباب الهوية العربية التي تهفو أفئدة الشماليين إليها ، وتطمح للإنتماء إليها .

فهؤلاء (العرب الأصلاء الأقحاح) يحتلون مركز هذه الهوية ، ويتمتعون بصلاحيات إضفاء الشرعية أو سحبها من إدعاءات الهامش . ويمثل الشماليون من الجانب الآخر الدائرة الخارجية من الهوية العربية ، ويحتلون الهامش ، ويتطلعون إلى إدنائهم للمركز . كعلامة من علامات الاعتراف .

١– منبر السودان الجديد – الشبكة الالكترونية

سحب الاعتراف عن أية مجموعة من قبل الأخريات ، وخاصة إذا كانت تلكم الأخريات يمثلن مركز الهوية ، يمكن أن يلحق أثراً مؤذياً بهذه المجموعة) ([1])

ويستمر المنبر في عزل السودان عن اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية ويسمي المنتمين للثقافة العربية الإسلامية والمتكلمين باللسان العربي بخلعاء الهوية ، ويعرفهم بأنهم (أولئك الذين لا يجدون موضعاً ملائماً داخلها ، فالشماليون يعيشون في عالم يحسون بالإنتماء إلى الأب الذي لا يظهر كثيراً في ملامحهم ، ويحتقرون الأم الظاهرة ظهوراً واضحاً في تلك الملامح .

هناك انشطار داخلي في الذات الشمالية بين الصورة والتصور ، بين الجسد والعقل ، بين لون البشرة والثقافة ، وبكلمة واحدة بين (الأم والأب) . فالثقافة العربية تجعل اللون الأبيض هو الأساس والمقياس ، وتحتقر اللون الأسود .

وعندما يستخدم الشماليون النظام الدلالي للغة العربية والنظام القيمي والرمزي للثقافة العربية ، فإنهم لا يجدون أنفسهم ، بل يجدون دلالات وقيماً تشير إلى المركز . فالذات الشمالية كذات غائبة من هذا النظام ، ولا ترى إلا كموضوع ، من خلال عيون المركز ، ومن هنا جاء الخلعاء .) (٢)

ونختم هذا الإسفاف بهذا الصوت الأجش الذي حول العلاقة بين السودان والعالم العربي من علاقة ايجابية خلاقة مبدعة معطاءة إلى علاقة سلبية دونية، ووضع لها منهجا معوجا سماه (منهج حمل المتاع) (المظهر الآخر لتأثير الهوية الهامشية هو ما يمكن أن نسميه منهج (حمل المتاع) فالهوية الهامشية ترنو دائماً إلى المركز كمصدر للإلهام الثقافي والديني ،والسياسي ، وليس متوقعاً منها أن تنتج أوتعير. يقول شون أوفاهي (السودان النهري الشمالي تفاعل دوماً مع مصر،أوتطلع عبرالبحر الأحمر إلى الجزيرة العربية .) فالرابطة الثقافية بين الشماليين والعالم العربي كانت على وجه العموم طريقا ذا اتجاه واحد، تتنقل فيه المنتجات الثقافية من خارج الحدود الشمالية عكس مجري النيل ،أومن الشرق عبر البحر الأحمر........ وبالنسبة للمركز ليس الهامش سوي خواء ثقافي ،وسياسي إن لم يكن سلة للنفايات ،ينبغي ملؤها،وهذا هو السبب الذي يجعل مختلف فئات المركز تتسابق لملئه.) (٣)

بعد أن استعرضنا نموذجا للتحديات والتهديدات التي تريد أن تغير اللسان العربي في السودان ،وترغب في أن تغير وجه الهوية الثقافية السودانية ، والتي تشكلت من خلال تصورات الإسلام للإنسان و الكون والحياة نخلص لنتيجة أن التحدي الذي يواجه الأمة السودانية اليوم هو تحد في وجودها وبقائها واستمرارها كأمة لها كيانها،وإنتماؤها ،وارثها ،ومستقبلها ، وكل ذلك الأساس فيه تلك اللغة العربية التي

[1] ــ جدل الهوية وحكاية عروبة السودان – مقال بقلم د. الباقر العفيف . ترجمة الخاتم عدلان . موقع منبر السودان الجديد ص١٥ –١٦
٢ – جدل الهوية وحكاية عروبة السودان – مقال بقلم د. الباقر العفيف . ترجمة الخاتم عدلان . موقع منبر السودان الجديد ص ١٧
٣– السابق صـــ٢٥

جمعت كل أهل السودان على لسان واحد، وتفكير واحد، و شعور مشترك، رغم تعدد اللهجات والبيئات والأعراق والأصول والثقافات، ومعها الدين الإسلامي الذي تعايش في كنفه كل أهل السودان ،حتى الذين لم يدينوا به ،ولاعجب أن يكون التحدي والتهديد في اللغة والدين ،لأنه كما يقول سالم البيض :(الغة والدين معا هما أساس (تواصل الهوية) على مستوى الإنتماء، مستشهداً بقول عالم الإنتماء المستشرق الفرنسي (جاك بارك) :(إن الشرق هو موطن وإن اللغة العربية لا تكاد تنتمي إلى عالم الإنسان .... يبدو بالأحرى أنها معارة له ... إن فضيلة الكلمة مستمدة من شكلها وصوتها وإيقاعاتها أكثر مما هي مستمدة من نوع تطابقها مع حقائق الحياة اليومية.) ([1])

يوافق هذا الطرح ماذهب إليه أمين حسن عمر في قوله:(و لم تكن علاقة العروبة بالإسلام هي علاقة اللغة فحسب ، ولوافترضنا جدلا أنها اللغة فحسب ، فإن اللغة أيا ما كانت تظل متلبسة بالقيم والأعراف والخبرات في المجتمع الذي تعبر عنه.) (٢)

وهذا – حسب – رأيه – يؤدي إلى تصور اختزال علاقة العروبة بالإسلام وإلى صلة عرضية هامشية ، ألقت النظر إلى أن العروبة سابقة للإسلام، ثم أشار إلى توسع مفهوم العروبة إلى الإنتماء والثقافة واللغة معاً ؛حيث توسعت يوماً ما في الفرس ، والهند، والقبط والنوبة ، وأهل الأندلس والأمازيق ، مما أفرز حقاً أصيلاً في العربية لساناً والعروبة ثقافة جعل من تراث القيادة العربية الإسلامية شرعة بين أطياف من العلماء والكبار ذوي الأصول الإثينة المتعددة .

فتكييف العروبة كهوية إذن يشتمل على أبعاد ثقافية وحضارية ودينية لازمة ، ويصلح في الوقت ذاته للاختيار على (الأساس اللغوي) الماثل في شعب السودان اليوم وكذلك الأساس الثقافي .

ويعد ذلك رداً يدحض كل افتراءات الذين كانت القوميات والعصبيات والعنصريات والألوان والنزعات العرقية مناط دعوتهم ، وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقم وزناً لهذه الفوارق القسرية كلها، إلا أنه لم يتنازل عن قضية العربية ؛ لأن اللغات مكتسبة ، وتعليمية ، ولابد منها لصياغة الأمة الواحدة .

ونرى التطبيق العملي لهذا في حياة المسلمين غير العرب (لم يقم الإسلام وزناً للأجناس ، والأعراق ، والألوان ، ولم يعتبرها وسيلة تفاخر وتفاضل ، لكنه لم يتنازل بحال من الأحوال عن أمر اللغة ؛ لأنها الميثاق الجامع ، والصعيد المشترك ، والقاعدة الثقافية والفكرية ، والحصن العقلي للأمة ووسيلتها إلى الترقي والنهوض .)(٣)

١ــ د. سالم البيض خطاب الهوية في النظام التربوي ــ مجلة دراسات مجتمعية ــ الخرطوم العدد الاول يونيو ٢٠٠٨م صــ٤٣

٢–د. أمين حسن عمر – مقال بعنوان رؤية جامعة لمشروع النهضة الحضارية الشاملة (كتاب المشروع الإسلامي في السودان) – معهد البحوث والدراسات الاجتماعية – الخرطوم – مجموعة مؤلفين – صــ٣٠

٣ــ د. إبراهيم السامرائي – في شرف العربية – كتاب الامة رقم ٤٢ – سنة ١٤١٥ ه ــصــ ٢٩

فإذا ما علمنا بعد ذلك أن مسألة (نقاوة الجنس ، أي احتفاظ جنس بدم واحد لم يختلط بغيره مما لا يجوز ادعاؤه لأية سلالة أو جنس في العصر الحديث .)(١)

علمنا كيف أن التكوين القومي الحديث جميعه لا يجوز له الاستناد إلى هذه الدعوى في أية محاولات لتكييف الهوية على أساس العنصر أو الجنس ، أو اللون أو القبيلة ، وغني عن البيان . أن تاريخ السودان وتكوينه القومي لا يخرج عن هذه الحقائق الدامغة من حيث النظرة الديموغرافية والإثنية .

ونقول لقد كان موقف العرب والإسلام من السودان موقفاً أخوياً صادقاً ابتداءاً من ظهور الإسلام الذي أكد على معتنقيه رفض العنصرية والطبقية والتمييز بأي شكل من الأشكال ، واعتبر المسلمين جميعاً بكافة ألوانهم وأجناسهم إخوة (إنما المؤمنون إخوة)(٢)

فنتج عن ذلك اندفاع السودانيين نحو اعتناق الإسلام طواعية ومن غير إكراه ، وكان لهم دورهم الكبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في المناطق الجنوبية من بلادهم ، ومحبتهم للغة العربية واندفاعهم في تعلمها والتحدث بها، والكتابة بها ، ومحاولة نشرها وتعليمها، واقتناء المصادر العربية .

وقد قامت عدة ممالك عربية صغيرة في الشمال والشرق، حتى استطاع التحالف بين قبائل العبدلاب العربية والفونج الزنجة عام ١٥٠٤م من اسقاط مملكة (علوة النوبية المسيحية) فقام نتاجاً لهذا التحالف دولة (الفونج) أو سلطنة سنار الإسلامية التي حكمت وسط السودان ، ومعظم شماله وامتدت إلى أجزاء من الشرق والغرب .

ولعل مملكة الفونج هي التي صبغت السودان بالصبغة الإسلامية ، وأعطته الإنتماء الحضاري والثقافي العربي ؛ فقد شكل ذلك التحالف العربي الزنجي ميلاد الهوية الثقافية السودانية الحديثة بشقيها العربي والزنجي .

ومن محاسن التوافقات أن أهل السودان حكومة وشعباً يستعدون للإحتفال بسنار عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٣م.

١- د. عبدالحميد متولي - تطور نظام الحكم في السودان منذ أقدم العصور ج١ - ص٧

٢- سورة الحجرات الآية ١٠

النتائج والتوصيات :

– كلما بحثنا في أمر اللغة أو الهوية أوالثقافة أوالدين تبينت لنا العلائق والوشائج التي تربطها فيما بينها .

– أهمية البحث في أمر اللغة والهوية والثقافة ومكوناهما ،خاصة في ظل التحولات العالمية والمحلية على جميع الأصعدة والمجالات .

– اللغة هي العامل الأهم في أمر الهوية والثقافة .

– الهوية الثقافية هي أساس التماسك لدى شعب السودان . وأي مساس بها نذير تفكك وتزعزع وحدته.

– اللغة العربية هي إحدى مكونات الهوية الثقافية السودانية في وحدهما القائمة على التنوع ، شأن الهوية الثقافية لبلدان أخرى تقوم وحدهما على تنوع عرقي ولغوي .

– يوجد تقارب بين اللغة العربية واللهجات السودانية ، والإسلام عمل على انتشارها في السودان .

– للشخصية السودانية علاقات إنتماء قبلية متعددة ، ويكاد يكون لكل قبيلة تقاليد وأعراف خاصة وليس في هذا ما يناقض الثقافة المشتركة كما في كل المجتمعات .

– إنتماء السودانيين إلى الأمة المسلمة لايلغي إنتماءهم إلى وطنهم ، وأمتهم ، ولا يلغي علاقات الإنتماء التاريخية ، ولا يلغي الوجود الحضاري والشعوبي السابق عليها .

– إن تعدد الإنتماء الديني في المجتمع السوداني لا يلغي وحدة هذا المجتمع . مثلما كان تعدد الإنتماء الديني في المدينة المنورة لم يلغ إنتمائهم إلى المدينة كوطن .

– مملكة الفونج هي التي صبغت السودان بالصبغة الإسلامية ، وأعطته الإنتماء الحضاري العربي ؛ فقد شكل ذلك التحالف العربي الزنجي ميلاد الهوية السودانية الحديثة بشقيها العربي والزنجي.

–علاقة الإنتماء الأفريقية أو الزنجية للشخصية السودانية لاتلغي علاقات الإنتماء الأخرى كعلاقة إنتمائها العربي ذا المضمون اللساني والثقافي والديني.

التوصيات:

– يحتاج موضوع اللغة والهوية الثقافية إلى مزيد من البحث والتدقيق وأن تعتني به الأمم العربية كلٍ على حده ، وأن تهتم به الأمة ككل .

–إبعاد الهوية عن الأغراض السياسية والنظرة الضيقة ، حتى لا يؤدي ذلك إلى إثارة النعرات والعصبيات و يكون سببا في التمزق والفتن .

–إن قضايا التنوع الثقافي في السودان يجب النظر إليها خارج الإطار السياسي والعلاقة بين الشمال والجنوب ؛ حتى ينظر إليها بعمق وموضوعية .

قائمة المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢– المعجم الوسيط .

٣ — أبو الفتح عثمان بن جني — الخصائص – عالم الكتب – تحقيق محمد النجار .

٤ — أمين حسن عمر – رؤية جامعة لمشروع النهضة الحضارية الشاملة (كتاب المشروع الإسلامي في السودان) معهد البحوث والدراسات الاجتماعية – الخرطوم .

٥ — الشريف الجرجاني – التعريفات – بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٨٨م .

٦ — المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية — الموسوعة الإسلامية العامة – القاهرة .

٧ — جمعة سيد يوسف –سيكولوجية اللغة والمرض العقلي — سلسلة عالم المعرفة .

٨ — جون جوزيف — اللغة والهوية – قومية إثنية ، دينية ، ترجمة عبد النور خراقي— عالم الفكر — الكويت .

٩ — حذيفة الصديق عمر الإمام – التطورات التاريخية لمشكلة جنوب السودان – أم درمان – الحرم للطباعة – سلسلة مركز محمد عمر بشير .

١٠ — خليل أحمد عمايرة – في التحليل اللغوي – مكتبة المنار — ط١ —١٩٨٧م .

١١ — عز الدين إسماعيل –الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – دار العودة – بيروت – الطبعة الخامسة — ١٩٨٨م .

١٢– عبد الرحمن بدوي — موسوعة الفلسفة .

١٣ — عبد الجليل — تاريخ وحضارات السودان – القاهرة — ١٩٧٢م.

١٤– عبد الرزاق الجاسم – العلاقات السياسية والاقتصادية بين المماليك وبلاد النوبة – رسالة ماجستير — جامعة الموصل — ١٩٨٠م .

١٥– عبد الله الألوري – موجز تاريخ نيجيريا – بيروت .

١٦– عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ — لغتنا والحياة – دار المعارف — مصر –

١٧ — عبد الغني أبو العزم– عربية الصحافة – منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب –١٩٩٨م.

١٨ — فيصل الحفيان – مقالات متعلقة بالعلاقة بين اللغة والهوية – شبكة الألوكة الإلكترونية .

١٩ محمد عبد الرؤوف المناوي — التوقيف على مهمات التعاريف – تحقيق محمود رضوان الداية – دمشق — دار الفكر — ١٩٩٠م .

٢٠ – مصطفى محمد طه – مقال ماذا نعني بالهوية الإسلامية – مجلة الدعوة – الرياض – عدد١٥٤٤– ١٩٩٦

٢١ – محمد عمارة – الهوية ضمن كتاب مؤتمر التاريخ الإسلامي وأزمة الهوية – الصادر عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية – ليبيا – ط٤ – ٢٠٠٠م .
٢٢ – محمد عابد الجابري – قضايا في الفكر المعاصر – بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية – ٢٠٠٣م .
٢٣ – محمد عابد الجابري – إشكالية الفكر العام – بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية – ٢٠٠٣م .
٢٤ – محمد طه بدوي – النظرية السياسية – ط٢ – القاهرة – الهيئة المصرية للكتاب – ١٩٨٣م .
٢٥ – محمد عوض محمد – السودان الشمالي قبائله وسكانه – القاهرة – ١٩٥١م .
٢٦ – يوسف فضل حسن – مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي – الخرطوم – ١٩٧٢.
٢٧ – نبيل علي – الثقافة العربية وعصر المعلومات – رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي – عالم المعرفة – الكويت عدد ٢٦٥ – يناير ٢٠٠١م .
٢٨ – فرديناند ديسوسير – دروس في الألسنية العامة – ترجمة صالح القومالي وآخرون – الدار العربية للكتاب – بيروت ١٩٨٥م.
٢٩ – آر جا أندرو – التعليق على أساس علم تشكيل الثقافة الإنسانية – آلان بريان – الأنثروبلوجيا الحالية – ١٩٦٣م .
٣٠ – إدوارد سابير – صندوق النشر التذكاري لسابير .
٣١ – مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية – عدد خاص – الملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية .
٣٢ – حبيب أبو قيس ـــ علة اهتمام الامم بلغاتها ـــ شبكة صوت العربية .
٣٣ ـــ ويكيبيديا – الموسوعة الحرة .
٣٤ – موقع ومنتديات اجتماعي www .ejtemay .com /showth ead.